مناقشة هادئة مع الأستاذ الناعوري

القيم الفنية في الشعر المتطلق

للأستاذ سليم عاوي عبد الجبار

أصدر الشاعر العراقي بدر شاكر السياب ديوانه الأول (أزهار ذابلة) عام ١٩٤٨ ، وقد تفردت قصيدة (هل كان حبا) من بين قصائد الديوان بطريقتها التعبيرية الجديدة ، هذه الطريقة التي آن للشعر العربي أن يدركها . وبعد صدور الديوان استرسل بدر في نظم قصائده ، وفقا لطريقته الجديدة ، وقد جمعها فيما بعد في ديوانه الثاني (أساطير)

وقرأت الشاعرة العراقية المبدعة نازك الملائكة ، هذه القصائد ، — كما قرأها آخرون يهمنا منهم الآن صالح جواد الطعمة — فصادفت عندها قبولا ومن ثم حاولت مجاراة الشاعر — في موسيقاه — فنظمت أغلب قصائد ديوانها الثاني — شظايا ورماد — وهي تتأثر خطي بدر . وفعل صالح كذلك ، فنظم بعض قصائد (ظلال الغيوم — و — والربيع المحتضر) على هذا المنوال

وقد كتب بدر ، ونازك ، عن هذه الطريقة ، أما بدر فقد اكتفى بإشارة سهدى السارين ، ولم يسهب . وأما نازك فقد أفاضت بالكلام .. ولكن عن القيم (العروضية) فقط ، مما يدلنا ، دلالة واضحة ، على أنها لم تفطن للقيم الأخرى ولم تتحسس بها ، وليست ملومة على ذلك ، فلا يطلب من الشاعر ، — ما هو من حصة النقاد

ولكن النقاد لم يقصدوا لهذه الطريقة ، ولم يدرسوها ، دراسة موضوعية شاملة غرضها الأصيل ، توضيح القيم ، وتثبيتها للاخرين ، فمثل هذه الدراسة تحتاج إلى جهد مضن ، مما قد يتمهل عن مثله النقاد العجالى

على أن أمامي الآن عددين من أعداد مجلة الأديب البيروتية(١) ، وفيهما مقالات للناقد الأردني الأستاذ عيسى إبراهيم الناعوري، حاول فيهما مثل تلك الدراسة؛ ولكننا نراهما بعيدين من الروح العلمية، هذه الروح التي تحتم على كل ذي مقال نقدي أن يلتجئ إليها، وإلى الذوق الرهف الحساس، وكان من الطبيعي وقد تناءى الأستاذ عن ذلك ، أن يتورط في أخطاء علمية بارزة ، وأخطاء ذوقية وعرة ، لا يرتضيها الواقع الشعري ، ولهذا وددنا قبل أن ننطلق في تثمين هذا الإنتاج ، أن نقف قليلا ، ونناقشها ، مناقشة علمية هادئة ، بدون تحيز إلا للعلم ، وبدون خضوع إلا للذوق

قال الأستاذ — وهو بصدد الأسلوب التعبيري الجديد (٢)

« ولكنه جاء يشبه النثر بتفعيلاته غير المتجانسة ، وغير المضبطة في نظام موسيقي »

لابد وأن الأستاذ — مع احترامنا الوافر له — لم يقرأ مقدمة شظايا ورماد وإلا لأدرك أن التفعيلات ليست متجانسة فقط ، وإنما هي (متطابقة) . وأزيد للتوضيح فأقول إنها عبارة عن تفعيلة واحدة مكررة — في كل بيت — عدداً من المرات يتغاير — عدديا — مع البيت الذي يليه أو يسبقه تغايرا يشاؤه الشاعر أو بالأحرى كما يتطلبه المعنى ، وذلك لأن هذا الشعر يعتمد على (الأبحر الكاملة) المتساوية التفاعيل

ثم ... ما الذي يقصده الكاتب بجملته (وغير مضبطة في نظام موسيقي) إذا كان ما يقصده بالنظام الموسيقي هو الطريقة السلفية — الكلاسية — فالشعر العربي منذ هوميروس وإلى الآن غير مضبط في نظام موسيقي ، وهذا مالم يقله أحد

هذا وقد أحس الشاعر العربي منذ القدم بقساوة هذا النظام — نظام الشطرين المتوازنين — والتفاعيل الثمان — فحاول الانفلات منه ، فابتدع المجزوء ، والمشطور ، والمنهوك ، وتوج ابتداعه (بالموشح) ، ولم أقرأ مقالا لناقد عربي أو غربي يتهم هذه الفروع الشعرية — وخاصة الموشح — بالخروج على النظام الموسيقي !!

إن النظام الموسيقي للشعر العربي (أو الغربي) لا يحدد

(١) العدد ٣ ، ٢ — ١٩٥٢

(٢) العدد الثالث ـ الشاعرة العراقية نازك الملائكة ص ٢٤

يا أستاذ بنظام الشطرين — الأبحر — بقدر ما يحدد بالتفعيلة الواحدة ، أو التفعيلتين ! (٣) راجع أوزان الشعر للدكتور محمد مندور . في الميزان الجديد

ثم يقول الأستاذ في مكان آخر من مقاله الأول (العدد الثالث)

«ولكننا لانظلم الشاعرة إذا قلنا إن طريقة النظم فيها (٤) لم تعرف الرحمة بآذان القراء وأذواقهم الشعرية »

أرأيت طريقة النظم ـ وليس نظم الشاعرة ، إن الأستاذ هنا (يحابي) الشاعرة ـ ومعذرة من الصراحة ـ فلا ينسب الفشل إليها ، بل يرجعه إلى (طريقة النظم !) فشأن الأستاذ كشأن ذاك التلميذ الذي تستعصي عليه مسألة رياضية فلا يستطيع حلها ، ولا يستطيع أنهام أستاذه بقدرته على التفهيم ، فيلقي القلم — مرتاحا — ليقول « إن المسألة مغلوطة !! »

ما ذنب (طريقة النظم) إذا فشل الشاعر في التعبير بواسطتها ؟ وهب أن قارئا — مثلي — استطاع البرهنة على صلاحية (طريقة النظم) وعدم تحديثها لآذان القراء وأذواقهم الشعرية ، فما يكون موقف (طريقة النظم) آنذاك ؟ أتكون تعرف الرحمة ولاتعرف ، في آن واحد !

ثم من الذي أخبر الأستاذ بآذان القراء وأذواقهم الشعرية ! هل استفتى القراء — والعصر عصر التجريب — أم اعتمد على رأي موثوق بصحته له أثره التوجيهي في تأريخنا النقدي !

ألا يجوز اعتماد نقادي شعراء العراق للتعبير وفقاً لهذه الطريقة دليلا على رحمتها آذان القراء ، والشعراء (وهم من أدق القراء إحساسا) فما إن ابتدع بدر هذه الطريقة حتى تصايح الشعراء العراقيون ، ونسجوا أشعارهم على تلك الطريقة؛ أذكر منهم نازك ، صالح ، بلند الحيدري، عبد الوهاب البياتي، شاذل جاسم طاقه ، عبد الرزاق عبد الواحد

ثم إن الكاتب احترس فحدد تذوق القراء بالنسبة لقصائد ثلاث من قصائد الشاعرة ، فما الرأي في القصائد الأخرى المنظومة بنفس (طريقة النظم) لماذا لم يشر الكاتب إلى طريقة النظم فيها؟

إذا ما أراد الأستاذ أن يصدر هذا الرأي — الذي كاد يكون حكماً — من وجهته الثانية فله كل الحق أن يتحدث عن نفسه ، أما أن يشرك آذان القراء وأذواقهم الشعرية ، فهذا ما هو بعيد عن الحياد العلمي

ولكن لماذا لم تعرف طريقة النظم فيها — كما يقول الأستاذ — الرحمة بآذان القراء ، وأذواقهم الشعرية . لابد من سبب ، والأستاذ ماهر ، لايعوزه ذلك فاسمه متمماً جملته السالفة

« فقد ألف القراء في الشعر العربي إيقاعا موسيقيا متجانساً ، فوجدوا هنا نظاماً غريباً مقلقاً يصدم الأذن بشكل عنيف »

والمطلوب من الأستاذ أن يعرف — لنا الإيقاع — تعريفاً علميا ، فالذي أفهمه أنا من الإيقاع ، التعريف الذي جاء به مندور إذ يقول

« نعرف الإيقاع ؟ ! فهو عبارة عن رجوع ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية متساوية أو متجاوبة »

فمن تعريف مندور يتراءى لنا أن الإيقاع لاعلاقة له بنظام الشطرين .لاعلاقة له مطلقاً، هذا وليس هناك إيقاع (غير متجانس) « فأنت — والكلام لمندور — إذا نقرت ثلاث نقرات ، ثم نقرت رابعة أقوى من الثلاثة السابقة ، وكررت عملك هذا ، تولد الإيقاع من رجوع النقرة القوية بعد كل ثلاث نقرات »

ومن هذا التبسيط الأخير يلتزم وجود الإيقاع المتجانس (وكل إيقاع متجانس) في الشعر الجديد كما في الشعر القديم

وما دام النقد هو فن دراسة النصوص — كما يقولون — فلم يعد بالإمكان الرضوخ والخنوع بمثل قول الأستاذ « فوجدوا هنا نظاما ... » إذا أصبح من اللازم أن يقوم الناقد — بوضع خطوط سوداء — تحت استنباطاته كأن يبين أثر هذا اللفظ ، أو ذاك ، وأثر هذه التفعيلة أو تلك ، أما أن يرسل (تذوقه) إرسالا مطلقاً ، فهذا ما لا نقره عليه (٥)

(٣) تفعيلة واحدة إذ كانت الأبحر متساوية التفعيلات — كاملة — وتفعيلتان في الأبحر المتجاوبة التفاعيل

(٤) يعود الضمير على قصائد ثلاث ذكرها الشاعر في مقاله

(٥) وعلى سبيل المثال لنشهد بمقالات الشعر المهموس ، لمندور ومقال الشاعر أبوريشة ينقد فيه للأستاذ الحازم إبراهيم العريض ، الأديب العدد الخامس السنة الثامنة (٤٨)

ثم تابع الأستاذ

« والحقيقة أن القارئ يسير مع الشاعرة فى هذه القصائد وأمثالها (١) لاهثاً من التعب .. فهناك بيت طويل ، وآخر قد لايزيد على لفظة واحدة »

ماذا نقول للأستاذ ! أيصح لدينا أن ننبذ هذا اللون من الشعر لمجرد أن هناك بيتاً طويلا . وآخر قد لايزيد على لفظة واحدة ، أم يتحتم علينا — كنقاد — أن نقف باستغراق وعمق إزاء هذا الإنتاج ، وكل إنتاج، فنتساءل — مادام الشاعر قد ارتضاه — عن مدى ما فيه من طاقة ، ونستقرئه استقراء دقيقاً شاملا ، ونحاوله تحليلا جزئيا ، ومن بعد نصدر حكمنا القاطع عليه

لا عليك — يا أستاذنا — من الرتابة التقليدية ، فإنها أصبحت لاتثير ولاتوحى ، عليك أن تنظر إلى المعنى ! فإذا كان القصر أو الطول مما يقتضيه المعنى ليستثير الخيال والعاطفة ، رحب به ، وافسح له صدرك

هل يجوز لنا أن ننتقد — رساماً لاشيء إلا لأنه يستعمل لوناً واحداً أولونين فى صورته — راجع المدرسة الثانوية فى الرسم — (الأديب ت ٤٨٠١)

ألم تلاحظ يا أستاذ أن غرض الشاعر هو الخروج عن ذلك التوازن الهندسى !

هذا ما جاء فى مقال الأستاذ الأول ، ولم يزد فى مقاله الثانى — الأديب العدد السابع ١٩٥٢ على ترديد ما سلف قوله فاسمعه (٦)

« إلا أن تشكيلة تفعيلاته غير المتجانسة تمنع من رؤية الجمال والحيوية فيه » وقوله « فلو جاءت هذه القصائد على أوزان وتقطيعات متناسبة متناغمة ، لكانت أجل وألطف وقعاً فى النفس ففيها معان جيلة ولكنها ضاعت بالصياغة »

أما عن جملته الأولى فقد ناقشناها من قبل ، وأما عن جملته الثانية فقراء عبد القاهر الجرجانى ، يدركون مقدار مافيها من التواء ، فالمعنى لا كيان له — إلا ظلا ضئيلا لابصيباً به — خارج الصياغة ، وليس لنا أن نتساءل عما يصبح عليه المعنى إذا ما تبدلت الصياغة تبدلا جوهريا ، فعلينا تقبله أورفضه ضمن الصياغـــة

ولا أفهم أكثر تناسقا وتناغماً من سيطرة تفعيلة واحدة على كافة أبيات القصيدة

على الأستاذ الشاعر أن يتحرز من استعمال كلمة خارج دلالاتها العلمية المتفق عليها (وسك الأفكار — كما يقول جورج ديهاميل — بمجازفة خطرة) . مما سبق يتضح لنا بجلاء أن الكاتب الأردنى لم (يحاول) أن يسير وفق المنهج العلمى للنقد ، ولم يختط له خطة مثلى ، تعينه على اجتياز مشاق الطريق . وعلى ثغره ابتسامة ناضرة

ولو درس الكاتب الشعر العراقى — الجديد — دراسة موازنة ، وراجع شعر بدر ، والآخرين ، لما تورط

(وموعدنا فى عدد قادم)

العراق — العمارة — سليم غاوي عبد الجبار

(٦) الشاعر العراقى صباح جـواد الظمة ، الأديب يونيو ص ٤٤ سنة ١٩٥٢

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى

لشاعر فرنسا الخالد

* لامرتين *

ثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد